﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إتباعُ ذِكْرِ الرَّحمةِ بذكر الملك إتمامٌ لمَعْنى الرُّبوبيَّة التي مِنْ مَعانيها المُلْكُ ونُفوذُ الأمر

"لمَّا كان الرَّبُّ المنعوتُ بالرَّحمة قد لا يكون مالِكًا، وكانت الرُّبوبيَّةُ لا تَتِمُّ إلَّا بالملك المُفيد لِلعِزَّة المقرونِ بالهَيْبَة المُثْمِرَة لِلبَطْشِ والقهر، المُنْتِجِ لنُفُوذ الأمر؛ أَتْبَعَ ذَلِكَ بقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾؛ تَرْهِيبًا مِن سَطَوَات مَجْدِه"[1].

وهذه الآيةُ والتي قبلها تشتركانِ في حَمْدِ اللّٰهِ تعالى -على ما سبقَ ذِكْرُ وجْهِه قريبًا-، وهو ضَرْبٌ مِن ضروب التناسُب.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مَٰلِكِ﴾: مشتقٌّ مِنَ المِلْكِ -بكسر الميم وفتحها-، والمَلِكُ: مشتقٌّ مِن المُلْكِ -بضم الميم-[2].

والمِلْكُ أصلهُ: الشَّدُّ والرَّبْطُ[3]، ومِنْهُ: إمْلاكُ العَرُوس؛ لأنَّهُ عَقْدٌ ورَبْطٌ للنِّكاحِ[4]، أو هو: احْتِوَاءُ الشَّيءِ والقُدْرَةُ عَلَيْهِ[5]، وهو راجعٌ إلى الأوَّلِ.

والمُلْكُ أصلهُ: قَهْرُ مَنْ تَتَأَتَّى مِنْهُ الطَّاعَةُ، أَوْ هُوَ التَّصَرُّفُ بالأَمْرِ والنَّهي في النَّاسِ[6].

والمِلْكُ والمَلْكُ -على ما سبق تقريره- يرجعان إلى أصلٍ جامعٍ؛ وهو القوَّةُ في الشَّيءِ[7].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/29.
(2) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: 4/110.
(3) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 30.
(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 1/184.
(5) ابن سِيدَه، المُحكم والمحيط الأعظم: (ملك).
(6) السّمين، الدُّرُّ المصون: 1/48، والرّاغب، المفردات: (ملك).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملك).

المـالـك يملك الأشـيـاء كلّها ويتصرّف فيها، والـمـلِك ينفذ أمره في ملكه

والمالِك: اسم فاعل مِنْ مَلَكَ يَمْلِكُ، واللّه هو المالك على الحقيقة، أي: "مالك الأشياء كلِّها ومُصَرِّفُها على إرادته لا يَمْتَنِع عَلَيْهِ مِنْهَا شيء؛ لأنَّ المَالِكَ في كلَامِ العَرَبِ للشَّيْءِ: هو المتصرِّف فيه القادر عَلَيْهِ"[1].

والمَلِكُ: هُو مَن يَنْفُذُ أمرُهُ في مُلْكِه[2].

2) ﴿يَوْمِ﴾: اليَوْمُ: هو المُدَّة الممتدَّةُ مِنْ طُلُوعِ الفَجْرِ -وقيل: مِن طلوع الشَّمس[3]- إلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى مَا يَعُمُّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ[4]، ويُطلق على مُدّةٍ مِن الزَّمانِ أيًّا كان مقدارُها[5].

فأمَّا الإطلاق الأوَّل؛ فكَالوَارِدِ في قول اللّه تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ: 18]، وكالذي في قوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: 183-184].

وأمَّا الإطلاق الثَّاني؛ فكَالوَارِدِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ﴾ [آل عمران: 41]؛ فإنَّ المُرَاد باليَوْمِ ما يَعُمُّ اللَّيْلَ كذَلِكَ، كمَا دلَّت على ذلك آيةُ سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: 10].

وأمَّا الإطلاقُ الثَّالِث؛ فكَالوَارِدِ في قولِه ﷻ: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ [البقرة: 254].

والمرادُ باليَوْمِ في ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ مُطْلَقُ الوقت[6]؛ وحقيقتُهُ: المُدَّةُ الممتدَّة مِن مَبْدَأ القيامة إلى وقت استقرار أهل الجنَّةِ في الجنَّة وأهل النَّار في النَّارِ.

3) ﴿ٱلدِّينِ﴾: أصلُ هذه المادَّةِ -وهي الدَّال والياء والنُّون- دالةٌ على اللُّزوم، ثُمَّ يأتي

(1) ابنُ إسحاق الزّجّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 43.
(2) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 30.
(3) ذكره الرّاغب في المفردات: (يوم)، وجعل القِنَّوْجِيُّ في فتح البيان: 1/47، هذا المعنى عُرفيًّا، وَبدْءَ اليوم من طلوع الفجر معنًى شرعيًّا. واستدرك السّمين الحلبيُّ في الدُّرِّ المصون: 1/52، على الرّاغب في جعلِهِ مَبْدَأَ اليومِ طلوعَ الشمسِ، فقال: «وهذا إنَّما ذكرُوهُ في النَّهارِ لا في اليَومِ».
(4) الفَيُّوميُّ، المصباح المنير: 2/682، وابنُ رُشد، بداية المجتهد: 2/200.
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 894.
(6) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 1/47.

في العربيَّةِ على أَوْجُهٍ ترجع كلُّهَا إلى شيءٍ يلزم الإنسانَ أو يلزمه الإنسانُ[1]، وردَّ ابنُ فارسٍ هذهِ المادَّةَ إلى جِنْسٍ مِنَ الانقيادِ والذُّلِّ[2]، وهذا والذي قبلَهُ متلازمان.

وَوَرَدَ الدِّين في القرآن على أَوْجُهٍ، بلغَ بها ابنُ الجَوْزِيِّ إلى أَحَدَ عَشَرَ وجْهًا[3].

وفي معنى الدِّين في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ قولان[4]:

أحدهما: الحساب، ومنه: «الكَيِّس مَنْ دَانَ نَفْسَهُ»[5]، أي: حاسبَهَا[6].

والآخرُ: الجزاءُ، ومنه المثَلُ المشهور: (كَمَا تَدِينُ تُدَانُ)، أي: كما تُجازِي تُجَازَى[7].

ولا تعارضَ بين القولَيْنِ، والأَوجَهُ حَمْلُ الآية عليهما معًا، ولذا قال ابن جرير: "والدِّينُ في هذا الموضع، بتأويل الحساب والمُجَازَاة بالأعمال"[8]، فجمعَهُمَا في صياغَةٍ واحدةٍ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا مُلْكَ في الآخرَة إلاّ لله الواحد القهّار

يمجِّدُ اللهُ تعالى نفسَه بأنه المالكُ لكلِّ ما في يوم الحِساب والجَزاء؛ وهو اليوم الآخِر الذي يقومُ فيه النّاسُ لربّ العالمين.

وفي الآيةِ تذكيرٌ للمسلمِ باليوم الآخر، وحثٌّ له على الاستعداد لذلك اليومِ بالعمل الصالح، والكفِّ عن المعاصي والسيئات.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيّ وَالبَلَاغِيّ:

سِرُّ اختيارِ لفظ ﴿مَٰلِكِ﴾ دون وصف (ربّ):

صِفة المُلك تُفيدُ إِقَامَةَ الجَزَاءِ عَلَى أَوْفَقِ الكَيْفِيَّاتِ وَبِمُقْتَضَى العَدْلِ

اختيرَ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ دون (ربِّ يوم الدِّين)؛ لأنَّ وصفَ (المالك) مُشْعِرٌ بإقامة الجزاء على أَوْفَقِ كيفيَّاته بالأفعال المَجْزِيِّ

(1) أبو هلال العسكريُّ، الوجوه والنظائر، ص: 217.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دين).
(3) ابنُ الجوزي، نُزهة الأعين النَّواظر، ص: 299-297.
(4) المَاوَرْدِيّ، النُّكت والعيون: 1/56، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/19.
(5) يُروى مرفوعًا ولا يصحُّ، رواه التِّرمذيُّ في جامعه، حديث رقم: (2459)، وهو في ضعيف الجامع، حديث رقم: (4305).
(6) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (دين).
(7) ابن سلاَّم، غريب الحديث: 3/136، وابن دريد، جمهرة اللغة: (دني).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 1/155.

عليها[1]، و(الملك) "مؤذِنٌ بإقامة العدل وعَدَم الهَوادةِ فيه؛ لأنَّ شأن المَلِكِ أن يُدبِّرَ صلاحَ الرَّعيَّةِ ويَذُبَّ عنهم، ولذلك أقام النَّاسُ الملوكَ عليهم"[2].

ولو جاء النَّظم القرآنيّ: (رَبّ يوم الدّين)؛ "لكانَ فيهِ مطمَعٌ للمُفسدين يجدُون مِن شأن الربِّ رحمةً وصَفْحًا"[3].

اللَّفُّ وَالنَّشْرُ فِي مُتَعَلَّقَاتِ الْأَوْصَافِ:

مُلاءَمةُ (مَلكِ يومِ الدّين) للرّبوبيّة، ومُلاءمةُ (إيَّاكَ نَعْبُدُ) للرّحيميّة

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ شبيهٌ باللَّفِّ، وقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ شبيهٌ بالنَّشْرِ؛ وذلك أنَّ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اشتمل على وصفين كُلِّيَّيْن: هما: وَصْفُ اللّه بالرُّبوبيَّة، ووصفُهُ بالرَّحمة، والأوَّلُ مُلائم لقوله بعدُ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، والثَّاني ملائمٌ لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، "فكان الأوَّلُ للأوَّل، والثَّاني لِلثَّاني"[4]، فكان بمنزلة اللَّفِّ والنَّشر المُرتَّب.

سِرُّ إضافَةِ لفظ ﴿مَٰلِكِ﴾ إلى ظرف الزّمان ﴿يَوۡمِ﴾:

مِلْكِيَّةُ الزَّمانِ تَسْتَلزِمُ مِلْكِيَّةَ جَمِيعِ مَا فِيهِ

وفي قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ كنايَةٌ عن كونِهِ مالكًا للأمر كلِّهِ؛ ووجهُ ذلكَ أنَّ "تَمَلُّك الزَّمان -كتَمَلُّك المكان- يستلزم تَمَلُّك جميع ما فيه"[5]، ثم إنَّ فيه إثباتًا لمُلكه له مع البُرهان على ذلك؛ لأنَّ "مالكيَّةَ الظَّرف مِن حيث إنَّه ظرفٌ مُستلزِمَةٌ لمالكيَّةِ المظروف بطريقٍ بُرهانيٍّ أبلَغ، فيكون حاصلُ مَعْنَى مالكيَّة يوم الدِّين نفسِه من حيث إنَّه ظرفٌ: مالكيةَ جميع الأمور التي كانت فيه"[6].

ذِكْرُ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ من الإطناب بذِكر الخاصِّ بَعْدَ العام:

تخصيصُ المُلك بيوم الدّين عنايَةٌ به، وتنبيهٌ للاستعداد له

وتخصيص المُلْكِ بيوم الدِّين في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ لا

(1) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/174.
(2) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/174.
(3) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/174.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/36.
(5) الخفَاجِيّ، كفايةُ القاضي: 1/100.
(6) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 1/205-206.

ينفي مُلكَهُ لِمَا عداه؛ إذْ إنَّه سبقَ قبلُ الإخبارُ بأنَّهُ ربُّ العالمين، ومن معاني الرّبوبيّة المُلكُ والتّصرّفُ، وهذا عامٌّ في الدَّارين: الدُّنيا والآخرة[1]، وعلى هذا؛ فيكون قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ مِنَ الإطنَابِ بذِكْرِ الخاصِّ بعد العامِّ؛ للعناية بشأن الفردِ الخاصِّ وهو يومُ القيامةِ.

ظرفُ الزّمان (يوم) بين الاستعارة والمجاز المرسل:

استعارةُ لفظ (يوم) للدّلالة على الزّمن المُمتدّ في يوم القيامة أو مجازٌ مُرسلٌ علاقتُهُ التّقييدُ والإطلاق

وفي قوله: ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، سبَقَ أنَّ اليومَ في الأصل: المُدَّة المُمتدَّة مِن طلوع الفجر إلى غروب الشَّمس، ثُمَّ استُعِيرَ فيما بين مُبتدأ القيامة إلى وقت استقرار أهل الدَّارين فيهما[2].

وتَخْرِيجهُ إلى المجَاز المُرْسَلِ أَظْهَرُ من تخريجه على الاِسْتِعَارَةِ؛ وتكون علاقتُه التَّقْيِيدَ والإطلاقَ، فاليوم الذي هو الوقت الممتدُّ مِن طلوع الفجر إلى غروبِ الشَّمس أُرِيدَ به مُطْلَقُ الوقتِ دون تقييده بطلوع الفجر وغروب الشّمس.

وتَوْجِيهُهُ على الاِسْتِعَارَةِ فيه ضَرْبٌ من البُعْدِ؛ إذْ يُخَرَّجُ على أنَّه شُبِّهَ الوقت الذي يمتَدُّ من مبتدأ القيامة إلى استقرار أهل الدَّارَيْنِ فيهما بالوقت الممتَدِّ مِن طلوع الفجر إلى غروب الشَّمس، بجامعِ: سُرعة الانقِضَاء في كلٍّ، فالثَّاني سريعُ الانْقِضَاءِ حقيقةً، والأوَّلُ سريعُ الانقضاء بالنسبةِ للمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ وَرَدَ في الحديث: «يَوْمُ الْقِيَامَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كَقَدْرِ مَا بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ»[3].

لَكِنْ يُشْكِلُ على هذا التّوجيهِ التّعبيرُ عَنْهُ باليوم في سِيَاقِ وَعيدِ العُصاة والكافرين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 174]، ولذا فإنّ توجيهَهُ على الاِسْتِعَارَةِ فيه بُعْدٌ، واللّه أعلم.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/134.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/143.
(3) رواه الحاكم في المستدرك، حديث رقم: (283)، وهو صحيح، كما في السّلسلة الصّحيحة، حديث رقم: (8193).

عبارةُ ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أشملُ من (يوم القيامة):

شُمُولِيَّةُ الْحِسَابِ وَالجَزَاءِ لِجَمِيعِ الأَزْمِنَةِ

وقال سبحانه: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ولم يَقُلْ: (يَوْمِ القِيَامَةِ)؛ لكونِ الأولِ أَعَمَّ؛ إذِ الدِّينُ بمعنى الجزاءِ والحساب يشمَل جميع أحوال القيامة مِن ابتداءِ النُّشور، إلى السَّرْمَدِ الدَّائم، بَلْ يكادُ يتناولُ النَّشأةَ الأُولى بأَسْرِها[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

ملِك، ومالِك:

المالِكُ أوسَعُ وأدخلُ في المَدح، والمَلِكُ خاصٌّ بالعُقلاء

اختُلف في المالك والملِك؛ فقيل: هما بمعنًى واحدٍ[2]، وقيل بينهما فَرْقٌ، واختلفوا في وَجْهِ الفرقِ بينهما على أقوالٍ:

القولُ الأوَّلُ: أَنَّ المالك أوسعُ وأدخَلُ في المَدْحِ مِنَ الملِكِ، وذلك من وجهين[3]:

أَحَدهما: أنَّه يقال: اللهُ مالك الإنس والجنِّ والطَّير وكلِّ شيءٍ، ولكن لا يُقالُ: مَلِك كلِّ شيءٍ؛ إذْ إنَّ المَلِكَ خاصٌّ بالعقلاءِ؛ لأنَّ المُلْكَ - كما سبق - قَهْرُ مَنْ تَتَأَتَّى مِنْهُ الطّاعَةُ، ولا تَتَأَتَّى الطَّاعة إلَّا مِنَ العُقَلاء. قال الرَّاغب: "المَلِكُ: هو المُتَصَرِّف بالأمر والنَّهْي في الجُمْهُور، وذلك يَخْتَصُّ بسياسَةِ النَّاطقين، ولهذا يُقَالُ: مَلِكُ النَّاسِ، ولا يُقال: مَلِك الأشياءِ"[4].

ثَانيهما: أنَّه لا يُوصَفُ أحدٌ بكونه مالكًا شيئًا إلا وهو يملِكُهُ، بخلاف الملِكِ؛ فقد يكون ملكًا على شيءٍ وهو غيرُ مالكٍ لهُ، كما يقال: ملكُ العَرَبِ.

---

(1) فاضل السَّامرائيُّ، لمسات بيانيَّة، ص: 38.
(2) الثَّعلبيُّ، الكشف والبيان: 1/114.
(3) الثَّعلبي، الكشف والبيان: 1/114.
(4) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (ملك).

المَلِكِ أَعَـمُّ مِن المـالِـكِ، وأمـرُهُ نافِذٌ على المالِك في مُلكِه

القول الثاني: أنَّ المَلِكَ أَعَمُّ مِن المالِكِ[1] -وهو عَكْسُ الأوَّل-، وذلك من وجهين:

أحدهما: أنَّ كُلَّ ملكٍ مالكٌ، وليس كلُّ مالكٍ ملِكًا؛ فقد يملك الإنسانُ الشَّيْءَ الحقيرَ أو الجليلَ، ولكنه ليس مَلِكًا.

ثانيهما: أنَّ الملِكَ يَنْفُذُ أمرهُ على المالكِ في مُلْكِه، فقد يَمْنَعُ المَلِكُ مَالِكَ الشيءِ مِنَ التصرُّفِ فِيمَا يَمْلِكُهُ إلَّا بإذْنٍ مِنْهُ.

بين ﴿مَلِكِ﴾ و﴿مَلِكِ﴾ عُمومٌ وخُصوصٌ وَجْهِيّ:

وحاصِلُ ما يُمْكِنُ قولُه[2]: أَنَّ المالكَ والملِك بينهما عمومٌ وخصوص وَجْهِيٌّ؛ فكلُّ واحدٍ منهما أعمُّ مِنْ وجهٍ وأخصُّ مِنْ وَجْهٍ، وبهذا يَنْتَظِمُ القولانِ السَّابقانِ في نظامٍ واحدٍ.

وإذا ضَمَمْنَا ما قُرِئَ به في المتواتر ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[3] إلى هَذِهِ القراءةِ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[4]؛ تكاملَ المَعْنَيَانِ.

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/140.

(2) فاضل السَّامرائيُّ، لمسات بيانيَّة، ص: 37-35.

(3) قرأ (ملك) بدون ألف: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، وأبو جعفر، ينظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 1/271.

(4) وقرأ (مالك) بإثبات الألف: عاصم، والكسائي، ويعقوب، وخَلَف، ينظر: ابن الجزري، النشر: 1/271.

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الأول

من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة